ترجمة مقدمة كتاب:

اللغة ذلك المجهول

Le Langage cet inconnu

جوليا كريستيفا Julia Kreisteiva

ترجمة: محمد التحريشي *

مقدمة في اللسانيات

لم تأخذ اللغة، بوصفها موضوعًا مفضلاً للتفكير والعلم والفلسفة، حقها من الدراسة إلى حد الآن، فهي وإن كانت منذ عشرات القرون أداة خاصة للتفكير، فإن العلم الذي يدرسها، وهو اللسانيات، لم ير النور، إلا حديثا، أما بالنسبة لمفهومية اللغة كمفتاح للإنسان، وللتاريخ الاجتماعي، كسبيل توصلنا إلى قوانين سير المجتمع، فإنها ربما، إحدى أهم ميزات عصرنا؛ وهي ظاهرة جديدة، فاللغة التي أحسن الإنسان ممارستها، والتي تكون معه ومع المجتمع وحدة لا تتجزأ. ومع هذا فإنها، أصبحت -أكثر من أي وقت مضى- معزولة حتى تتناول كموضوع خاص للمعرفة، يكشف لنا ليس عن قوانين سيره فقط، بل وحتى عن ما يهم الجانب الاجتماعي فيه.

❖ ومن ثم فإن العلاقة بين المتكلم واللغة، مرت بمرحلتين حيث تفسر الثانية منها عصرنا الحالي:

❖ تكشف المرحلة الأولى عن أن تراث الأمم السالفة يتدرج في تحليله للظاهرة اللغوية من الأساطير إلى المعتقدات القديمة، ثم إلى الفلسفة، وأخيرا إلى علوم اللغة. ثم تم إسقاط المعرفة العلمية للغة على مجموع الممارسات الاجتماعية، وتحققت بذلك دراسة اللغات كمظاهر لها مدلولات، وتم أيضًا وضع الأسس الأولى لمقاربة علمية في الميدان الإنساني الواسع.

❖ إن الوضع الأول، أي وضع اللغة موضوعا خاصا للمعرفة، أفضى باللغة إلى أن أصبحت وسيلة وغاية في الوقت نفسه، فلم تعد تلك الممارسة التي تجهل نفسها لتتحدث عن قوانينها الخاصة بها.

❖ لنقل «إن كلامًا يتكلم به» إن هذا التحول الأساس يعزل المتكلم (الإنسان) عما يؤسسه (اللغة)، وفعل القول كيف يقول. ولعله من الصعب منع الإنسان من أن يكون وحدة مستقلة غير قابلة للتجزئة، ولكنها قابلة للتحليل كنظام متكلم، وكلغة.

إذا كان عصرنا عصر النهضة قد عوض السلطة الدينية في العصور الوسطى بالإنسان الذي أصبح السيد. فإن عصرنا الحالي أتى بثورة لا تقل أهمية عن سابقتها، إذ تم بها القضاء على كل المعتقدات غير العلمية، وحل محلها الحكم العلمي الموضوعي البعيد

---

* أكاديمي من الجزائر.

عن الذاتية، وتم بذلك تعويض الإنسان بنظام يحكمه المنطق العلمي. فاللغة، والإنسان بوصفه لغة، واللغة عوض الإنسان تصرف يقصي المعتقدات ويدخل العلم منطقة مركبة وغير دقيقة بالنسبة للإنسان، وأين تستقر فيها الأيديولوجيات والديانات بصفة اعتيادية. إنها اللسانيات المحرك لهذا التمفصل، والتي تجعل اللغة موضوع العلم، ومن ثم التعرف إلى القوانين التي تسيره.

لقد ظهرت كلمة «اللسانيات» في القرن الماضي، وتم تسجيلها أول مرة في سنة ١٨٣٣، إلا أن مصطلح اللساني كان موجودًا قبل ذلك، وتحديدا سنة ١٨١٦ عند (فرانسوا رانيور) françois raynouard في كتابه مختارات (choix des poésies des troubadours) من أشعار التروبادور ١:١. لقد سرى هذا العلم بخطى متسارعة نحو الجديد، خاصة وأنه ممارسة نحسن استعمالها دون معرفة خباياها وأسرارها. والذي يعني لغة، يعني تحديدا دلالة وتواصلا، وفي الاتجاه نفسه. فإن كل الممارسات الإنسانية هي نماذج لغة مادامت تحمل خاصية التحديد والدلالة والتواصل، فعملية تبادل البضائع والسلع، والنساء في الشبكة الاجتماعية، وإنتاج التحف الفنية، والخطابات المفسرة كالديانات والمعتقدات.. الخ. كلها تحقق نظاما لسانيا ثانويا بالنسبة للغة، تشيد على أساسه شبكة تواصلية مع المواضيع التي لها معنى ودلالة. ومعرفة هذه الأنظمة (هؤلاء المتكلمين وهذه المعاني وهذه الدلالات). ودراسة خصائصها بوصفها أنماط لغة، وهذه هي الحركة الثانية التي تحدد التفكير الحديث، التي يجعل من الإنسان موضوعا، ارتكازا على اللسانيات.

ما هي اللغة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقودنا إلى عمق الإشكالية، والتي كانت عبر كل الحقب الزمنية دراسة ماهية اللغة. ولقد كانت كل حضارة تجيب عن هذا السؤال على حسب القوالب التي تؤسسها متأثرة بمجموع المعارف والمعتقدات والأفكار السائدة فيها. فالمرحلة المسيحية إلى غاية القرن (١٨) كانت تنظر إلى اللغة نظرة دينية بالبحث عن أصولها، والقواعد المنطقية التي تحكمها. أما القرن (١٩) والمتميز بالتاريخية، فكانت اللغة فيه ظاهرة تطور وتغيير عبر العصور. وفي أيامنا هذه تغيرت النظرة إلى اللغة التي أصبحت نظامًا يجب البحث عن المسائل التي توجه سيره. إذن حتى نحدد طبيعة اللغة ونمسك بها، وجب تتبع المراحل المختلفة البشرية، وتحديد نظرة كل مرحلة للغة، وهذا قبل تأسيس العلوم التي تهتم بدراستها.

إن السؤال: ما هي اللغة؟ يعوض بآخر، كيف أصبحت اللغة تفكر؟ بهذا السؤال نعرض عن البحث في جوهر اللغة، ونعرض الممارسة اللسانية مصطحبة بالتطور الذي ميزها، التفكير الذي أحدثته والطريقة التي عرضت بها. إن بعض التوضيحات ضرورية من أجل وضع مشكل اللغة موضع البحث لتسهيل فهم الصور المتتابعة التي أعطتها البشرية للغة.

اللغة/ اللسان/ الكلام/ الخطاب:

عند تقصينا اللغة عند الشعوب البدائية، أو في العصر الحديث، نجدها تمثل نظامًا جد معقد، تتشابك فيه مجموعة مختلفة من المسائل. إن نظرة من الخارج تجعلنا نقول إن اللغة تمثل نمطا ماديا متغيرا يحسن بنا معرفة مميزاته وعلائقه: إنه سلسلة من الأصوات المنطوقة وشبكة من الرموز المكتوبة (كتابة) أو لعبة من الإشارات (إشارية). إذن فما هي العلاقات التي بين الصوت والكتابة، والصوت والإشارة؟ لماذا هذه الاختلافات؟ وإلام تؤدي؟.

إن اللغة تطرح علينا هذه المشكلات كلما بحثنا في طريقة تكونها، وفي الوقت نفسه، فإن هذه المادية المنطوقة والمكتوبة أو الإشارية تبين ما نسميه تفكيرا، وهو ما يعني أن اللغة هي جوهر التفكير. هل توجد لغة

من دون تفكير أو تفكير من دون لغة؟ سؤال يطرح باستمرار. فالخطاب الأبكم (التفكير الأبكم) يترك بصماته في بنية الشبكة اللغوية، ولا يستطيع تجاوزها، إنه يظهر في أيامنا مستحيلا من دون مغادرة ميدان المادية لإثبات وجود تفكير لساني. وإذا لاحظنا الفروق بين ممارسة اللغة التي تهدف إلى التواصل، والحلم أو التقدم العقلي اللاشعوري أو ما قبل الشعوري، إن علوم اليوم تحاول توسيع مبدأ اللغة بإتاحتها الفرصة لها لتحيط بالذي كان غائبًا في أول وهلة، وليس طرد هذه الظواهر.

إننا نحتفظ لأنفسنا كذلك، تأكيدا، بأن اللغة وسيلة للتفكير، إن نظرة كهذه توحي بأن اللغة تعبر عن فكرة خارجة عنها، ولكن ما هي هذه الفكرة؟ وهل توجد بصفة غير صفة اللغة؟ نفترض ذلك وهو ما يؤدي إلى أن التفكير مرئي. إننا نرى كيف أن النظرة الآلية للغة تفترض في قاعدتها وجود تفكير أو نشاط رمزي من دون لغة، يتصل بميزاتها الفيزيائية وبالدين. وإذا كانت اللغة مادة الفكر، إنها أيضا عنصر التواصل الاجتماعي فلا يمكن وجود مجتمع من دون لغة ولا دون تواصل. فكل ما ينتج من لغة، يكون تواصليا في التبادل الاجتماعي. والسؤال الكلاسي: ما هو الدور الأولي للغة؟ تكوين فكر أم توصيله؟ إن اللغة هي كل هذا في الوقت نفسه، ولا يمكن فصل إحدى الوظائف عن الأخرى. وكل الشواهد التي يقدمها علم الآثار عن الممارسات اللغوية توجد في الأنظمة الاجتماعية. ونتيجة لذلك تشارك في التواصل. (الإنسان يتكلم) و(الإنسان حيوان اجتماعي) هما نظريتان توتولوجيتان ومترادفتان، إن قولنا بالطبيعة الاجتماعية للغة لا يعني بالضرورة أننا أحرزنا تفوقا في مجال وظيفتها التواصلية. وبعد تقديمنا المذهب الروحي للغة ونظرية التواصل لمكانتها في المقاربة اللغوية فإنها على العكس من ذلك قد تؤدي إلى إخفاء كل إشكالية متعلقة بالتكوين اللساني وإنتاجه، أي تكوين الموضوع المتكلم وإنتاجه، والدلالة التواصلية التي تكون ثوابت غير قابلة للتحليل. وبهذا نستطيع القول إن اللغة هي عملية تواصلية لرسالة بين المرسل والمتلقي

المرسل الرسالة المتلقي

وكل فرد متكلم هو في الوقت نفسه مرسل ومستقبل لرسالته، بما أنه يستطيع إرسال الرسالة وفك رموزها، وكذلك لأنه لا يرسل إلا ما يستطيع فك رموزه. ولأن الرسالة المرسلة إلى الطرف الآخر هي قبل كل شيء مرسلة إلى صاحبها وهو ما يجعلنا نقول إن الكلام يحدث في الذات أولا

المرسل رسالة
المستقبل رسالة المرسل
رسالة المستقبل

وفي الوقت نفسه فإن المستقبل المحلل للخطاب لا يحلله إلا في النطاق الذي يسمح له بقول ما يسمعه. إننا نرى إذن بأن دائرة التواصل الإنساني المنجزة تدخلنا في مجال معقد للفرد الموضوع وذلك بالقوانين التي تحكمه وتميزه عن فرد آخر، إذا كانت اللغة ممارسة تنجز في نطاق التواصل الاجتماعي، فإنها تشكل حقيقة مادية بمشاركة العالم المادي نفسه. وهذا لا يطرح مشكلة على الإطلاق بالنسبة لما هو ليس بلغة، على الرغم من أنه لا يمكن تسميته من دون لغة. ما معنى إعطاء أسماء؟ كيف تعطى الأسماء؟ أسئلة تساعدنا على فهم اللغة.

وباختصار فإن ما ندعوه لغة له تاريخ يحدث في الزمان، ومن منظار هذه التعاقبية، فإن اللغة تتحول، عبر مختلف المراحل، وتأخذ لنفسها أشكالا مختلفة عند مختلف الشعوب. وإذا أخذنا اللغة في مرحلة معينة -أي تزامنيا- فإن لديها قواعد محددة تسيرها في بنيتها، وكل تغير شكلي أو بنيوي يخضع لقوانين صارمة.

إننا نرى -كما أشار إلى ذلك دي سوسير- أن

اللغة بوصفها ظاهرة إنسانية تتميز بتعدد عناصرها، فهي من ههنا غير متجانسة في ذاتها، فهي موضوع لمعارف إنسانية متعددة (دراسة فيزيائية-فيزيولوجية- نفسية)، وهي إذ ذاك تنتهي إلى مجال فردي ومجال اجتماعي، الأمر الذي يجعل تصنيفها وإخضاعها للوصف والتحليل معا مستحيلا، فهي حينئذ تستعصي على الباحث اللساني الذي يسعى إلى تناولها من وجهة نظر واحدة إذ إنها محل اهتمام لكثير من التخصصات، فالتعقيدات والاختلافات التي تميز اللغة تتطلب تحليلا فلسفيا وانثروبولوجيا ونفسيا واجتماعيا دون الحديث عن الفروع اللسانية المختلفة. ولعزل موضوع محدد ومرتب من الكتلة من الخطوط التي تتجمع في اللغة، فإن اللسانيات تميز اللسان من مجموع أجزاء اللغة، في هذا الإطار يقول دي سوسير: «إننا نستطيع تعيين اللغة في الجزء المحدد من الدارة، وهو عنصر لساني متكون من (صورة سمعية) و(مفهوم). مشتركان ومترابطان فيما بينهما وهو يعطينا من الدارة: الشكل التالي

الصوت ـــــــ ـــــــ سماع
ي ج ي ج (ج) الصورة السمعية
(ي) المفهوم
سماع ـــــــ ـــــــ الصوت

إن اللسان هو الجانب الاجتماعي للغة، ويقع خارج الفرد، وخارج إرادته، ويخضع لتواضع اجتماعي، ونظرا لهذه المعضلة يكون من الأنجع البحث عن إطار موحد في بنية، ويتميز بالتناج» التام بين عناصره، ولا تتحقق هذه الصفة إلا في اللسان، وهو في نظر دي سوسير رصيد وضعته ممارسة الكلام في دائرة الأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمع متجانس، وهو نظام قواعدي يوجد بصفة مضمرة في أذهان الأشخاص المتكلمين الذين ينتمون إلى المجتمع اللغوي؛ إذ إن اللسان من حيث هو ظاهرة اجتماعية لا يوجد عند كل فرد على حدة، بل يوجد بصفة كاملة عند الجماعة، فهو إذن القانون المشترك بين أفراد المجتمع اللغوي، الذي يسمح لهم بالاتصال وهو يتميز عن اللغة من حيث إنه ظاهرة اجتماعية تمارس فعالياتها بالقوة، بمعزل عن إرادة الأفراد المتكلمين. ولكن الكلام يكون دائمًا فرديا؛ فالفرد هو الذي يتحكم في الكلام بحسب دي سوسير هو «عمل فردي نابع عن إررادة وذكاء. ويمكن لنا تمييز شيئين:

على قسمين:

أحدهما: التراكيب اللسانية التي يستخدم فيها الفرد المتكلم قوانين اللسان للتعبير عن فكره الشخصي.

والآخر: الآلية النفسية والفزيولوجية التي تسمح له بإخراج هذه التراكيب في الواقع.

إن هذا التميز بين (اللغة - اللسان - الكلام) المتحدث عنه مهمل لدى بعض اللسانيين على الرغم من أنه يحدد موضوع اللسانيات. وأما بالنسبة إلى سوسير ذاته؛ فإن اللسانيات تؤدي إلى تقسيم دراسة الكلام إلى قسمين:

١. قسم يخص اللسان وهو اجتماعي مستقل عن الفرد، وهو نفسي فقط.
٢. وقسم نفسي فيزيائي يخص الجانب الفردي للغة: الكلام والمتضمن للصوت.

وهذان القسمان غير قابلين للتجزئة: فعلى الرغم من الفرق الموجود بينهما فإنهما متصلان، وصلتهما وثيقة جدا، إذ إن أحدهما يقتضي الآخر، لأن اللسان ما هو إلا راسب من عمليات عديدة للكلام عبر الزمن، أما الكلام فإنه تطبيق أو استعمال للوسائل والأدوات الصوتية والتركيبية والمعجمية التي يوفرها اللسان.

إن المدخل إلى المبادئ الخاصة بنظرية التواصل في الحقل اللساني تتطلب إعادة النظر في مفهوم: اللسان/ كلام، وإعطائه دلالة جديدة وفعالة. لقد لاحظ نوربرت واينر (Norbert Wiener) عدم وجود أي تناقض أساسي ما بين المشاكل التواصلية لدى المختصين في الاتصال، وتلك التي تواجه اللسانيين والمهندسين. فالقصد هو نقل رسالة بمساعدة نظام

ترميز، أي بأقل عدد من المقرارات المزدوجة، أو بعبارة أخرى نظام ترتيبي، أو لنقل بوساطة شكل يمثل البنى الثابتة والأساسية للرسالة، أي البنى الخاصة بالمرسل والمتلقي، والتي، بفضلها، يتمكن المستقبل من إعادة بناء الرسالة.

وكذلك فإن الباحث اللساني يستطيع أن يجد في تعقد الرسالة خطوطا متباينة حيث يقدم التركيب ترميز الرسالة مثلما يلاحظه رومان ياكبسون (Roman Jakobson) فالملفوظات الكلامية المنتمية إلى الجماعات اللغوية نفسها، يمكن تحديدها بنظام ترميزي واحد، فوجوده يقوي التواصل ويجعله ممكنا، ومن ثم يسهل عملية تبادل الرسائل.

إن مصطلح الخطاب يحدد بصفة صارمة، ودون التباس، مظاهر اللغة في التواصل الحي كما حدده أميل بنفينيست (Emile Benveniste)، وبهذا يعارض هذا المفهوم، مفهوم اللسان، والذي يجد، مع الأسف، اللغة مجموعة من العلامات الدالة المحددة بطريقة متتابعة مشكلة بذلك نظاما وبنيات. إن الخطاب يتضمن أولا مشاركة الفرد في لغته مرورا بالكلام الذي يصدره، وباستعماله للبنية المجهولة للسان، فإن الفرد يتشكل ويتحول في الخطاب الذي يبثه للآخر. فاللسان المشترك بين الجميع يصبح -في الخطاب- ناقلا لرسالة موحدة وصحيحة البنى الخاصة بالفرد، والذي يضفي عليها طابعًا خاصا، أين يبين الفرد بأنه واع.

ولكي نحدد مخطط الخطاب استطعنا أن نقابله بمخطط الكلام والتاريخ عند بنفينيست (Benveniste)؛ فإن المتلكم، في المعطيات التاريخية، مقصى من السرد. وكل ذاتية وكل مرجعية تكونان مقصاتين من المعطيات التاريخية ومن ثم يؤسس لنفسه ببيوغرافية ذاتية للمعطيات الحقيقية. وبالمقابل فإن مصطلح (خطاب) يعين كل المعطيات التي تدخل في بنيتها المتكلم والمستمع مع رغبة الأول في التأثير في الآخر. ثم هل يصبح الخطاب الحقل المفضل للتحليل النفساني، يقول جاك لاكان (Jacques Lacan) عن هذه الوسائل إنها وسائل الكلام بما أنها تجعل معنى لما يقوله الفرد. مجالها هو مجال الخطاب المحسوس بما أنه حقيقة فردية للمتكلم، إن عملياتها هي عمليات التاريخ لأنها تؤسس لبزوغ الحقيقة في الواقع.

لقد بات من الواضح أن دراسة اللغة هي معرفة تعددية خصائصها ووظائفها، إنها بناء علم ونظرية مهمين في مختلف الفروع؛ من تأسيس علم دقيق للوظائف الدالة عند الإنسان. إنه لمن الضروري معرفة اللغة الشفهية والمكتوبة؛ إي اللسان والخطاب، والتنظيم الداخلي للمعطيات وعلاقتها بموضوع التواصل ومنطق التغييرات التاريخية والقيود على المستوى اللساني في الواقع، وبذلك نكون قد قاربنا القوانين الخاصة بالعمل الرمزي.

العلامة اللسانية:

فكرة أن النواة الأساسية للسان تكمن في العلامة فكرة خاصة لمفكرين ومدارس فكرية من الإغريق إلى العصور الوسطى وحتى يومنا هذا، وفي الحقيقة فكل سامع على الأقل هو واع بأن اللغة ترمز وتنوب، عن طريق تسميتها، عن الحقائق الواقعية. إن عناصر السلسلة الكلامية، نضع الكلمات، هي مشتركة مع بعض الأشياء أو مع ما تدل عليه.

إن العلامة أو العرض، كما قال شارل ساندرز بيرس (Charle Sanders Peirce) هو ما يعوض شيئا لأحد، توجه العلامة لأحد وتذكره بشيء أو فعل بغياب هذا الشيء أو غياب الفعل؛ ولهذا نقول بأن العلامة تعني لا غياب (Inabsentia) ولا حضور (Inpresentia) أي بالنسبة إلى الشيء الموجود والتي تعرضه، تظهر العلامة بأنها تعتمد على ميثاق وتعاهد بين الشيء المادي الممثل والشكل الصوتي الممثل.

إن الكلمة الإغريقية، من حيث الجذر اللغوي مصدرها الفعل والذي يعني (وضع جماعي)، والذي كان مستعملا في غالب الأحيان ليدل على تجمع واتفاق وتعاهد؛ فبالنسبة إلى إغريق، علم أو راية هما رمزان،

كتذكرة المسرح نفسها، لشعور أو اعتقاد، نرغب في أن الذي يوحد هذه المظاهر ويسمح بتسمية موحدة هو العمل بأن كل شيء يعوض أو يمثل شيئا غائبا في عملية اتصال، وأثير بوساطة، ونتيجة لذلك يدخل في نظام تبادل. إن العلامة في نظرية بيرس (Peirce) هي علاقة ثلاثية تنشأ بين الشيء وممثله ومؤوله. وبالنسبة لبيرس (Peirce) فإن المؤول هو قاعدة تتحدد بموجبها العلاقة موضوع – علامة، ويتناسب هذا التحديد مع فكرة تحديد أفلاطون لمفهوم المؤول. حيث إن العلامة لا تمثل الموضوع كله بله فكرة عنه فقط، أو مفهوما عن هذا الموضوع كما ذهب إلى ذلك سافير (Saphir).

إننا نستطيع التأكيد، نظريا، من أن العلامات اللسانية هي أصل كل ترميز: فأول فعل ترميزي هو الترميز في الكلام وبه. ولا ينفي هذا الأمر تعدد العلامات في مختلف ميادين الممارسة الإنسانية. وقد استطاع بيرس (Peirce) أن يرتب العلاقة بين الممثل والموضوع الممثل في ثلاث رتب:

- الأيقونة (L icone) تحيل إلى الموضوع عن طريق المشابهة به؛ فعلى سبيل المثال، إن رسم شجرة الذي يمثل الشجرة الحقيقية عن طريق المشابهة هو الأيقونة.
- المؤشر(L' index) لا يشبه الموضوع بشكل قوي، إنما يحيل إليه بطريقة ما لوجود شيء يجمع بينهما: فالدخان يدل على النار.
- الرمز (Le Symbole) يحيل إلى موضوع يحدده بما يشبه القانون، أو الميثاق، بوساطة الفكرة: هذه هي العلامات اللسانية.

وإذا كان بيرس (Peirce) قد وضع نظرية عامة للعلامات؛ فإننا ندين بالفضل لسوسير، لتطويره العلامة اللسانية تطويرا شاملا وعلميا ضمن المفهوم الحديث. ففي دروس في اللسانيات العامة (١٩١٦)، لاحظ سوسير بأنه من الوهم الاعتقاد بأن العلامة اللسانية مشاركة شيء واسم؛ فالرابط الذي تكونه العلامة يكون بين التصور والصورة السمعية. والصورة السمعية ليست الصوت بعينه ولكن البصمة النفسية لهذا الصوت، والتقديم الذي تعطيه الشهادة لمعانينا. كذلك فإن العلامة بالنسبة إلى سوسير، هي حقيقة نفسيه بوجهين وجه للتصور، ووجه للصورة السمعية. فعلى سبيل المثال الكلمة (حجرة) علامة مكونة من الصورة السمعية (حجر) والتصور (حجر):

غلاف يحكم ويربط كل ما هو موحد لآلاف التمثيلات التي نستطيع الحصول عليها من العنصر المتميز (حجر)

(حجر)
حجر حجر

وهذان الوجهان المتلازمان للعلامة، واللذان يشبههما دو سوسير بصفحتي الورقة نفسها، ندعوهما المدلول (التصور) والدال (الصورة السمعية). وبالنسبة إلى سوسير، فإن العلامة اللسانية محددة بالعلاقة بين الدال والمدلول، حيث يقصى الموضوع المعين تحت معنى المرجع: فاللسانيات لا تهتم بالمرجع، بل بالدال والمدلول وبعلاقتهما.

فما العلاقة بين الدال والمدلول؟

من المسلمات الأساسية في اللسانيات أن العلامة اعتباطية. بمعنى أنه لا توجد علاقة ضرورية بين الدال والمدلول: فالمدلول (حجر) له دال بالفرنسية هو (Pier) وباللغة الروسية (Kame) وباللغة الإنجليزية (Stone) وباللغة الصينية (shi). ولا يعني هذا بأن المدلولات مختارة تعسفا بوساطة فعل إرادي فردي، ومن ثم يمكن تغييرها تعسفا أيضا. بل على العكس من ذلك إن اعتباطية العلامة معيارية ومطلقة ومقبولة وضرورية لكل الأفراد المتكلمين اللغة نفسها. وكلمة (اعتباطية) تعني تحديدا عدم العلية، أي أنه لا توجد ضرورة طبيعية أو حقيقية تربط الدال والمدلول. حتى وإن كانت بعض المحاكاة الصوتية وبعض علامات

التعجب تومئ إلى الظواهر الحقيقية، التي تبدو معللة، لا يلغي هذا المسلمة اللسانية، ما دام الأمر يتعلق بحالة ذات أهمية ثانوية.

مع العلم أن نظرية العلامة لها الأسبقية في طرح مشكلة العلاقة بين اللسان والواقع خارج حقل الاهتمامات اللسانية، وهي التي تسمح بدراسة اللسان كنظام قطعي، خاضع لقوانين وأفعال بنيات منظمة ومتحولة، هي الآن عرضة لنقد إذا لم يحطمها، إنه يدخل عليها بعض التغييرات.

وترتكز نظرية العلامة على التقليص لشبكة صوتية معقدة حيث الخطاب في سلسلة خطية معزول فيها عنصر أدنى مناسب لكلمة. إذ من الصعوبة بمكان تقبل أن الوحدة الأدنى للغة هي الكلمة. ولهذا فإن الكلمة، من جهة، لا تأخذ دلالتها الكاملة إلا في الجملة، أي في علاقة تركيبية وبوساطتها، ومن جهة أخرى، فإن هذه الكلمة نفسها قابلة للتحليل إلى عناصر مرفولوجية، مورفيمات (Les morphèmes)، أصغر منها، حاملة، هي نفسها، دلالة، حيث يشكل الكل دلالة الكلمة. ففي الكلمات donner don donneur أعطى عطية معطي(نستطيع عزل الرقيم (المورفيم) (don) الذي يتضمن معنى العطاء، في حين أن الرقيمين (er eur) يعطيان كيفيات أخرى للجذر (don) عطية(، إلا أن دلالة هذه الكلمة لا تكتمل إلا إذا درسناها داخل خطاب، آخذين بعين الاعتبار نطق المتكلم.

ويتضح لنا أن الكلمة التي كانت تبدو لنا وحدة غير قابلة للتجزئة، تصبح غير ذلك في نظر اللسانيين، ولم تعد، في أيامنا هذه، الركيزة الأساسية للتفكير حول عملية الكلام. وكتب أندري مارتيني André Martinet، بحق، يقول: «إن السيميائية La Sémiologie [علم العلامات] كما تظهرها دراسات معاصرة، لا تحتاج إلى الكلمة، ولا نتصور أن السيميائيين يفكرون في (اسم) عندما يكتبون (علامة)، ولا أحد سيفكر في (جملة) أو (نطق)، من دون الاعتقاد أن (r) في (Paiera) هو علامة أيضا.

واقترح مارتيني (Martinet) تعويض مفهوم اسم بذلك التركيب (syntagme)، (مجموعة الحد الأدنى من العلامات المتنوعة) والتي ندعوها (مونيم monème) مباشرة، فلا يوجد إلا واحد وهو نفسه؛ وإذا اختار أن يستعمل (fur) فإن السامع لا يتوانى في تجزئة الباقي. نلاحظ، على سبيل المثال، أن اللسانيات تريد أن تقبض، بعيدا عن المظاهر المباشرة، خلف (شاشة اسم)، على المميزات الأساسية والواقعية للغة الإنسانية.

ومن جهة أخرى، ومع توافق واسع مع عزل الكلمة كعنصر أساس للسان، فإن نظرية العلامات تنبني تحت سيطرة المفهوم لما كان المفهوم مدلولا بنية العلامة نفسها. وأن قبول هذا الزعم قبولا تاما يقودنا إلى إقصاء عن ميدان اللغة كل ما ليس له علاقة بالمفهوم: الحلم، اللاشعور، الشعر، الخ.، أو على الأقل تقليص خصوصيتها إلى نوع بوظيفة تصورية مشابهة، تقود إلى نظرة عادية للوظيفة التصورية للدال التي لا تستطيع تناول تنوع الاستعمالات الدلالية، عندما لا تقصيها في مرض يقهر. ويلاحظ بعض اللسانيين، كادوارد سابير (Edward Sapir)، في هذا المجال، أنه من الخطأ التمييز بين اللغة والفكر كما يمارس الآن؛ بل يذهب إلى التأكيد إلى أن اللغة، هي قبل كل شيء، وظيفة (أكثر عقلية)، وهذا يعني أن مادتها تعرض على تطبيقات تفاضلية وتنظيمية لا تنهض بالضرورة من صواب الموضوع المحدد آنيا كموضوع منهجي.

وفي الأخير، إن المعاينة النقدية خذلت فكرة اعتباطية العلامة. إذ يبدو أن التفكير السوسيري قد قبل بخطأ: حيث أكد أن المادة (المرجع) ليست جزأ من النظام اللساني، فسوسير يعتقد حقا في مرجع حقيقي عندما يؤكد أن [Bof] و [Oks]، على الرغم من اختلاف مدلولهما، يستندان إلى فكرة واحدة (إلى دال واحد)، ومع ذلك فإن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية. وفي الأساس، كما لاحظ بنفنيست (Benveniste)، فالعلاقة بين الدال [Bof] والمدلول «Boeuf» ليست إعتباطية. والرابط بين - [Bof]

«Boeuf» ضروري، فالمفهوم والصورة السمعية متلازمان ويوجدان في تناظر مثبت. أما الاعتباطية فهي علاقة العلامة (دال – مدلول: - [Bof] «Boeuf») بالواقع الذي تشخصه، وبمعنى آخر علاقة الرمز اللغوي في شموليته خارج الواقع الذي يرمز إليه. ويبدو أن ههنا احتمال، في الوضع الحالي للسانيات، لم يستطع أن يجد تفسيرا غير التفسير الفلسفي أو النظري.

فما هي النظريات التي اهتمت بهذا الفتح في إدراك اللغة كنظام علامات؟

فارتكازا على التصور (الذي تتيحه نظرية العلامة) أن اللسان نظام صوري، فإن اللسانيات لا تعنى بالمظاهر الرمزية للغة، بل تدرس نظامها كبنية (تحولية). هذه هي النظريات الحالية لنوام شومسكي (Noam Chomsky). ففي خطوة أولى انتقل من مستوى الكلمة إلى بنية الجملة، التي تتركب من وظائف نحوية. وفي زمن ثاني، فإن العنصرين النحويين الأساسيين (الموضوع والمحمول) محللان، ومعينان بالتأشيرين (الجبريين) س و ص (X,Y)، ويتحولان، في تطور مسمى (تكويني) إلى أسماء وأفعال. وتعوض مشاكل المعنى بتشكيل يقدم الإجراء الشامل الذي بوساطته تستطيع الكليات (المحمولات) اللسانية «مكونات وقواعد عامة» أن تحدث جملا نحوية –ومن ثم دلاليا– صحيحة. وعوض البحث عن سبب تكون اللغة من نظام علامات؛ فإن النحو التوليدي عند تشومسكي يكشف عن آليات قطعية، نحوية، لهذا المجموع التكويني حيث اللسان، وحيث التحقق الصحيح، له كنتيجة معنى[1]. ونلاحظ إذن أن اللسانيات الحديثة تذهب إلى أبعد مما ذهب إليه سوسير، تحلل جوهر اللغة وتقدم المعنى (حيث لا تبدأ بالاهتمام بها) كنتيجة لمسار تحول نحوي مكون للجمل. وهذه محاولة تذكرنا باللساني ليونار بلومفيلد Leoard Bloomfield الذي ألغى علم الدلالة من اللسانيات وحوله إلى ميدان علم النفس. ومن وجهة نظر أخرى، وارتكازا على نقد فلسفي لمفهوم العلامة نفسه، والذي يربط الصوت والفكر إلى درجة يقدر معها أن يمحو الدال لصالح المدلول، ولاحظ مؤلفون آخرون أن الكتابة، كأثر أو رسم (والتي ندعوها حسب اصطلاح حديث نسقا)، تكشف عن مشهد لا يتمكن الدال والمدلول من رؤيته: مشهد عوض أن يضع «تشابها» كما تفعل العلامة، فإنه على العكس من ذلك آلية الاختلاف نفسها. ففي الكتابة، في الواقع، يوجد رسم وليس تقديم، وهذا الرسم –هذا الأثر– أعطى أسسا لعلم نظري جديد والذي دعوناه (الجراماتولوجية) La Grammatologie.

٣ مادية اللغة

إذا كانت اللغة شبكة اختلاف مضبوطة تؤسس المعنى والتواصل، فإنها أبعد من أن تكون مثالية نقية. إنها تتحقق في مادة ملموسة والقواعد الموضوعية لتنظيمها وبوساطتهما معا. وبقول آخر، إذا كنا نعرف اللغة بوساطة نظام تصوري معقد، فإن شكل اللغة، هو نفسه، يقدم مادية مدركة مضاعفا:

فمن جهة، في الجانب الصوتي، الحركي أو المكتوب الذي يكتسيه اللسان (لا توجد لغة من دون صوت، حركة أو كتابة)؛

ومن جهة أخرى، في موضوعية القوانين التي تنظم مختلف المجموعات الجزئية للمجموعة اللسانية، التي تشكل علم الأصوات والنحو والأسلوبية والدلالة الخ.. تعكس هذه القوانين العلاقات الموضوعية بين المتكلم والحقيقة الخارجية؛ وتعكس أيضا الصلات التي تنظم المجتمع الإنساني، ومعينة في الوقت ذاته، علاقاتها وصلاتها.

الصوتي

لقد رأينا أن العلامة اللسانية لا تحتوي الصوت المادي: فالدال هو الـ «صورة سمعية» وليس الضوضاء

الملموسة. إذ إن هذا الدال لا يوجد من دون حامله المادي: الصوت الذي ينتجه الحيوان البشري. ويجب تمييز هذا الصوت، الحامل للمعنى، عن مختلف الأصوات التي تستعمل وسيلة للتواصل بين الحيوانات. بينما الصوت اللساني هو من صنف آخر إذ إنه يؤسس هذا النظام التمييزي، والمعنوي، والتواصلي حيث اللسان بالمعنى الذي أعطيناه له عاليا، والذي لا ينتمي إلا إلى المجتمع الإنساني.

إن الصوت اللساني ينتج بما نسميه بلا دقة «أعضاء الكلام». كما لاحظ ذلك في الأساس سابير Sapir، (لا توجد، قال بدقة، أعضاء للكلام، توجد فقط الأعضاء التي هي ضرورية عرضا لإنتاج أصوات اللغة). وفي الواقع إذا كانت بعض الأعضاء من مثل الرئتين والحنجرة والحنك والأنف واللسان والأسنان والشفتين، تشارك في تلفظ اللغة، فهي لا يمكن عدها وسيلة لها. فاللغة ليست وظيفة بيولوجية كالتنفس أو الشم أو التذوق، التي لها أعضاؤها في الرئتين، الأنف اللسان..الخ. إن اللغة هي وظيفة تمييز وتعبير، أي وظيفة اجتماعية لا وظيفة بيولوجية، تبدو ممكنة بوساطة العمل البيولوجي.

ولا نستطيع القول أيضا إن اللغة ممركزة بيولوجيا في الدماغ. فعلم النفس الفيسيولوجي، حقيقة، استطاع أن يحدد مختلف المظاهر المادية للغة في شتى المراكز الدماغية: يتحكم المركز السمعي في أسماع المعنى؛ والمراكز المحركة، وحركة اللسان والشفتين والحنجرة.. الخ؛ إن المركز البصري وعملية الإدراك البصري ضرورية في القراءة..الخ. والحال أن كل هذه المراكز لا تتحكم إلا في الأجزاء المكونة للغة، ولكنها لا تعطي أية قاعدة لهذه الوظيفة التأليفية والاجتماعية التي تعني ممارسة اللسان. وبمفاهيم أخرى، إن الأعضاء الجسمانية التي تشارك في التشكيل المادي للغة تستطيع أن تمدنا بالأساس الكمي والميكانيكي للنشاط اللساني، من دون تفسير هذه النقلة النوعية التي يقوم بها الإنسان لما يبدأ في ملاحظة الاختلافات داخل نظام متحول إلى شبكة التعبيرات التي تتواصل بها الذوات داخل المجتمع. وشبكة الاختلافات هذه ليس لها تموضع لا في الدماغ ولا في منطقة أخرى. إنها وظيفة اجتماعية أكثر تحديدا بوساطة السيرورة المركبة للتبادل والعمل الاجتماعي، المنتج بها وغير المفهوم من دونها.

وبعد، يمكننا أن نصف الأعضاء التي تقدم الأساس الآلي للتلفظ اللساني: الجهاز الصوتي ونشاطه.

إن الهواء المطرود من الرئتين، يتبع المسالك التنفسية جاعلا مزمار الحنجرة يهتز، والذي لا يرسخ أي تمييز للأصوات. إنه مكون من حبلين صوتيين، وهما عبارة عن عضلتين متوازيتين تتقاربان أو تتباعدان، وهو الذي يكون الصوت الحنجري عن اقتراب الحبلين الصوتيين.

وهذا الصوت الموحد يستطيع عبور التجويف الفمي أو التجويف الأنفي التي تخصص مختلف أصوات اللسان. ويتركب التجويف الفمي من الشفتين واللسان والأسنان العلوية والحنك (مع جزء داخلي جامد وعظمي، وجزء لاحق متحرك: الغلصمة). وطنطلة والأسنان السفلية. وبحكم هذه العناصر يستطيع التجويف الفمي أن يتسع أو أن يضيق، في حين أن اللسان والشفتين تستطيعان أن تمنح قيما متعددة للصوت الحنجري. وإذن فإن التجويف الفمي يقوم في الآن معا بإنتاج الأصوات وأحداث صدى لها. ففي حال انفتاح واسع لمزمار الحنجرة، أي في غياب اهتزاز الحنجرة، إن التجويف الفمي هو الذي يحدث الصوت. وفي حال اهتزاز مزمار الحنجرة، أي عندما يكون الحبلان متقاربين، فإن الفم لا يقوم إلا بتطويع الصوت الحنجري.

وعلى النقيض من ذلك، فإن التجويف الأنفي ثابت تماما ولا يلعب دور راد للصدى. لقد استطعنا أن نعزل بعض خصائص تلفظ الأصوات التي بوساطتها يمكن وضع تصنيف ملائم يأخذ بقيمتها الصوتية. هكذا قصد سوسير الأخذ بالعناصر التالية لاستخراج مميزات صوت: الزفير والتمفصل الفمي واهتزاز

الحنجرة والصدى الأنفي. (يجب، كتب يقول، إثبات لكل صوت: ما هو تمفصله الفمية، وهل يحتمل صوتا حنجريا أولا، وهل يحتمل صدى أنفي أو لا). وميز نتيجة لذلك الأصوات المبهمة والأصوات الرنانة، والأصوات المبهمة الأنفية والأصوات الرنانة الأنفية. وانطلاقا من تمفصلها الفمي، أعطى سوسير التنظيم التالي للعناصر الصغرى للسلسلة الكلامية أو الوحدات الصوتية («الوحدة الصوتية هي مجموع الآثار السمعية والحركات النطقية للوحدة المسموعة والوحدة المنطوقة..»):

إن الانسدادات الحاصلة نتيجة الانسداد الكلي أو بفعل عائق عضوي، لكنه مؤقت، للتجويف الفمي:

أ– الشفوية؛ p,b,m

ب– الأسنانية؛t,d,n

ت– الحلقية؛k,g,z

والأنفية هي انسداد للأصوات الجهورية الغنة.

والاحتكاكية أو الرخوة: إذ لا ينغلق مجرى الهواء تماما عند النطق ويسمح للهواء بالمرور.

أ. الشفوية:,f,v

ب. الأسنانية:(genie) z (chant) s, z, s

ت. الغاري: (liegen, all, nord) y؛(ich,all),x

ث. الحلقية: (Tage, all, nord) y, (Bach, all) x

التجويف الأنفي

الأصوات المائعة:

أ. المتعلق بالجانب: يلامس اللسان الجزء الأمامي من اللثة، تاركا فتحة على اليمين وعلى اليسار؛ كذا لـ ١ أسناني و١ حنكي و١ حنجري؛

ب. الاهتزازية: يهتز اللسان في مقابل اللثة، أقل اقتراباً منها، هكذا بالنسبة إلى r المكرر (يحدث بقدمه اللسان المنطبقة إلى الأمام على اللثة)، والـ r الألثغ (يحدث بالطرف الخلفي للسان).

وينمحي التجويف الفمي بالنسبة للأصوات الصائتة كمنتج للصوت: يقوم الفم فقط بدور الرنين، ويسمع الصوت الحنجري الرنان كاملا. ويفرض بعض التمييز بين الصوتين الصائتين، I,u يمكن تسميتها نصف صائتة حسب سوسير؛ إذا اتخذت الشفتان شكل انفتاح أفقي للفظ الصائت i ، ومستديرة للصائت u ؛ وفي الحالين يتصل اللسان باللثة، وهي أصول الثنايا؛ وبالنسبة إلى c,o,o يقتضي التلفظ انفتاحاً خفيفا للحنكين قياسا للصائتين السابقين، و a يلفظ بانفتاح تام للفم.

إن وصف الأثر الصوتي والصوائت والصوامت أيضا يجب أن يأخذ في الحسبان، بالإضافة إلى ذلك، من منظور أن الوحدات الصوتية لا توجد في حالة منعزلة، بل هي جزء من مجموعة: المعبر عنه، حيث تكون على علاقة استقلالية داخلية. فعلم الأصوات يجب أن يكون، إذن، علما لمجموعة الأصوات المجهورة لإدراك الخاصية الحقيقية للنطق. وهكذا، وحسبما في مقطع لفظي، يلفظ صوت بشكل منغلق أو مفتوح، ويمكننا أن نميز في الحالة الأولى انبجاسا (<) وفي الحالة الثانية انفجارا (>). فعلى سبيل المثال: appa هذان اللفظان المرتبان يعطيان الزمر المنفجرة – المنبجسة، المنبجسة – النفجرة..الخ. نصل هكذا إلى تحديد مصوت مزدوج: إنه «رابطة انبجاسية بوحدتين صوتيتين حيث الثانية مفتوحة نسبيا، وحيث الأثر السمعي الخاص: ويقال إن المجهورة مستمرة في العنصر الثاني للرابطة». ومثال على ذلك: أشار سوسير إلى الرابطتين uo ia في بعض اللهجات الألمانية (buob, liab).

وتتميز الأصوات اللسانية أيضا بمدتها، والتي ندعوها كمية: هذه الميزة متغيرة في مختلف اللغات، وتتعلق أيضا بوضعية الصوت في مجموع السلسلة الملفوظة. وهكذا ففي اللغة الفرنسية، لا توجد الكمية الطويلة إلا في المقطع اللفظي المتحرك.

ونلاحظ إذن التأثير الداخلي للأصوات في السلسلة الكلامية الذي يموقع لعلم أصوات تركيبي والذي يدرس طرائق تأثير الصوائت والصوامت بحسب اتفاقهما. إن هذه التحولات لا تغير الخاصية الأساسية للأصوات. كما يمكن التلفظ بالأصوات الذلقية (t,d) المتصلة بالصائت الذي يتحقق بقيام

صلة بين سطح اللسان والحنك (ti,di-) ليس كالصامت مثل (ton,don)؛ تنطبق عند اتصالها بالأصوات الصائتة الخلفية، أو تتعلق بالشفتين من أجل استدارتهما، والذي يصحب تلفظ الأصوات الصائتة الشفوية المتشابهة. وفي الواقع توجد وحدات صوتية دنيا تحدث تحولات أكثر أهمية للأصوات. هكذا:

التماثل: الواقع عند اقتراب صوت من صوت آخر في حال تلفظه، وموضع تلفظه، ففي entendre على المثال، ينطق حرف n مكان حرف t وحرف d.

الإبدال: إبراز مختلف الوحدات الصوتية. وهكذا فاللغة الفرنسية الشعبية تسجل colidor مكان icorri dor.

التدخل: عندما تغير الوحدات الصوتية مكانها، والقلب عندما يقع التحول عن بعد، وهكذا فاسم العلم Roland أخذ بالإيطالية صيغة Orlando.

الترخيم (أو التندير): إتلاف عنصر من السلسلة الكلامية الذي كان يجب تكراره والمثل المعطى غالبا هو مأساة هزلية tragi - comedie مكان tragico - comedie.

إن السلسلة الكلامية المبنية هكذا بالوحدات الصوتية، لا تتقلص مع ذلك إلى خط مقطع إلى قطع مقدمة بوساطة الوحدات الصوتية المنفردة. ففي الممارسة الكلامية، تركب هذه الوحدات الصوتية في وحدات عليا كالمقاطع الصوتية لـ Gramont) جرامو وFouche فوشي(حيث إن الصيغة أثبتت بوساطة علم الأصوات السمعي، فالمقطع الصوتي يتميز بتحفز نام للعضلات الصوتية. في حين تتعاقب بتحفز غير نام. وفي مستوى عال. إن السلسلة الكلامية لا تقدم كلمات فقط، بل مجموعات صوتية مكونة من قوة الحركة على المقطع الصوتي الأخير. ففي «l'ami du peuple» (صديق الشعب) توجد حركة واحدة على «peu» والذي يجعل التعبير مجموعة النبرات الصوتية الواحدة، وفوق المجموعات الصوتية نجد الجملة غير المحدودة بعملية التنفس التي تقطع السلسلة النطوقة. ونسجل في الأخير أن هذه الخصائص المادية لعلم الأصوات اللساني، والذي نعطيه هاهنا نظرة وجيزة ورسما إجماليا فقط، تختص بكل لغة وطنية وتتنوع حسب العصور: فصوتية فرنسية العصور الوسطى ليست هي نفسها الآن.

التعبير الخطي والتعبير الإشاري

لم تقترح العلوم الحديثة بعد نظرية مقنعة للكتابة وعلاقتها باللغة والأنظمة التي تسيرها على الرغم من الأعمال الكثيرة التي شهدتها الإنسانية على مر العصور.

وتعقيبا على القول الذي اكتسى طابعا ميتافيزيقيا والقائم على قضية معرفة ما الذي يكمن في الأصل، الكلام أم الكتوب، فإن فان جينيك (Van Ginneken) باعتماده على أعمال العالم الصيني تشانغ تشينغ مينغ (Tchang Tcheng-Ming) قد أثبت تقريبا بخلاف كل الناس أطروحة أقدمية الكتابة بالنسبة إلى الكلام المنطوق، وانطلق من أساس أن الكتابة الصينية، على سبيل المثال، تبدو شبيهة باللغة الإشارية، ومن ثم فهي أقدم من اللغة المنطوقة.

إن هذه الجدلية، علاوة على الوقاحة العلمية التي تقدمها في حالة ما إذا تمكنا من الحصول على معطيات قليلة للحكم على أقدمية اللغة؛ فإنها تبدو في وقتنا الحاضر باطلة بسبب اللاوجود النظري الذي يشكل القضية الأساس. إن مشكل الأولية للمكتوب على المنطوق، أو عكس ذلك، لا يمكن له أخذ معنى تاريخي بل نظري: فإذا قبلنا، على سبيل المثال، أن الأثر (المكتوب) هو علامة الاختلاف المكونة للدلالة، كما أنه إلحاق محمول أساسي لكل لغة أو لفظ مفهوم. ومن ثم فالصوتي أثر آنفا، حتى ولو ساهمت المادة الصوتية في تطور خصوصيات داخل النظام اللغوي، والتي كان بإمكان الكتابة رسمها بخلاف ذلك. ففي التبادل الاجتماعي، أحرز الصوتي حرية واستقلالية، ولكن في الزمن الثاني صارت الكتابة كغطاء ثانوي لتثبيت التلفظ.

إن الكتابة تدوم، تنتقل وتعمل في غياب الكائنات الناطقة. وذلك لتسم نفسها في الفضاء متحدية الزمن، فإذا كانت الكلمة تتسلسل في الزمنية، فإن اللغة مع الكتابة تمر عبر الزمن بيسر كهيئة فضائية. وتعين أيضا نمطا من العمل حيث الكائن، مع تميزه عما يحيط به، وفي النطاق الذي يحدد به هذا المحيط، فإنه لا يستخلص ولا يصنع لنفسه سعة مثالية (الصوت والفخ) لتنظيم الاتصال، ولكن الممارسة في المادة والحيز حتى لهذه الحقيقة التي ينتمي إليها، والتي يتميز بأنه يحددها. فعمل التمايز والمشاركة قياسا للواقعي، فالكتابة هي لغة من دون ما وراء، ومن دون تجاوز: فالـ «ألوهية» المكتوبة تنتمي إلى العالم نفسه الذي ترسمه المادة والتي تستقبلها، ولنقل أيضا أن الأثر المكتوب مثل الإشارة، إذا كانا يشكلان عمل تمايز وتعيين فما يزالان علامتين بالمعنى المحدد أعلاه. ومثلث العلامة (مرجع – دال – مدلول) يبدو هاهنا مقتصرا على رمز (في الكتابة) أو على علاقة (في الإشارة) بين الكائن وبين ما هو خارجه، ومن دون وساطة «لفكرة» قد تم تركيبها وفي «أنفسنا» (مؤول، مدلول).

لقد استطعنا أن نلاحظ العلاقة المحصورة بين الإشارة وبعض الكتابات من مثل كتابة الصينيين وكتابة هنود أمريكا الشمالية. وحسب ج.ج.فيفري J-G. Fevier، وبالرجوع إلى أعمال ج ماليري G. Mallery وتشانغ تشينغ مينغ Tchang Tcheng-Ming، فإن الوينر كونتس Winter - Counts يكتبون الغليون (pipe) لا بتقديم الشيء، ولكن بتخطيط الإشارة التي ترسمه. وبالنسبة للصينيين فالخط الهيروغليفي لصديق أو صداقة هو رسم إشارة الصداقة ممثلا في اليدين الواحدة في الأخرى. إذا افترضنا أن هناك شيأً حقيقياً أو تنسيق أشياء بإمكانها أن تمثل كتابة يعني لغة، ففي هذه الحالة، إن الشيء أو كافة الأشياء هي مستخلصة من فوائدها التطبيقية، وينطق كنظام الاختلافات التي تصبح علامات موضوعات الاتصال. والمثل المبين لهذا النمط من اللغة المحسوسة الذي من خلاله لا تزال العلامة لم تميز بعد من المرجع، ولكن ببساطة هذا المرجع المعدود ضمن نظام مبلّغ أعطي لنا من طرف هيرودوث (١١,١٦) الذي يروي أنه لما غزى الملك داريوس Darius بلاد السقيث Scythes أرسل إليه هؤلاء هدية تتكون من طائر وفأرة وضفدع وخمسة سهام. فهذه الرسالة كان يجب أن تقرأ أيضا على النحو التالي: «لن تنجو من سهامنا إلا إذا تحولتم إلى طائر للطيران في الجو، إلى فأر للدخول في جوف الأرض، أو إلى ضفدع للاحتماء في المستنقعات».

إنه مثال مناسب لشكل خطي يتقارب حد الكتابة المخطوطة حقا المقدمة من الكتابات المكونة من معادل عام، أي من مادة واحدة موجودة ضمن مختلف التصورات التي تصلح لمعرفة شتى الأشياء، وأيضا العقد بالنسبة إلى الإنكاء Les Incas الذين كانوا يسمون بهذه الطريقة الحيوانات التي قتلت في المعارك. وقد وصفهم المؤرخ الإسباني غارسيلاسو دي لا فيغا Garcilaso de la Vega على الشكل التالي:س لشؤون الحرب والحكومة، للقبائل وللاحتفالات، توجد فتلات مختلفة، وفي كل ربطة منها يوجد العقد العديدة والخيوط المربوطة: الحمراء والخضراء والزرقاء والبيضاء..الخ، أكثر ما نجد من اختلافات في حروفنا الأربع والعشرين بوضعها على عدة صفات مختلفة، لكي نحصل على أصوات متنوعة أكثر ما يحصل الهنود على عدد كبير من التعابير بحسب الوضع المختلف للعقد والألوان».

والحال أن الكتابة الحقيقية هي إذن تخطيطات وغرامات وأشكال خطية مركبة أبعد مما يرجع في تاريخ علم الآثار والأنثروبولوجية. تموقعت التخطيطات الأكثر قدما في نهاية العصر الموسترياني، وانتشرت لاسيما حوالي ٣٥٠٠٠ قبل عصرنا، خلال عهد شاتلبيرون .Chatelperron ويتمثل ذلك في حزات على الحجارة أو العظام من دون تصوير يترك محل اعتقاد أن الكتابة تكيفية التي تنقل أو تمثل صورة موجودة سابقا، أو هي لاحقا تلفظ منظم. ونستطيع

ذكر، على سبيل المثال، كتابات الاستراليين الشيرينغة Churingas كانوا يرسمون بطريقة مجردة أجسادهم أجدادهم ومختلف بيئتهم. وتؤكد اكتشافات إحاثية أخرى الأطروحة، والتي بموجبها قيدت الكتابات الأولية الإيقاع لا شكل نتوء أين يولد الترميز من غير أن يصبح لهذا تمثيلا.

وقبل عصرنا حوالي عام ٢٠٠٠٠ كان الشكل الخطي شائعا ويتطور ليصل حوالي ١٥٠٠٠ إلى مهارة تقنية للنقش ولفن الرسم مساويا للذي في العصر الحديث تقريبا. كما أنه واضح للتحقيق بأن التصويرات الإنسانية تفقد خاصيتها الواقعية وتصبح معنوية مبنية بوساطة مثلثات ومربعات وخطوط ونقاط مثل ما هو على جدران مغارات لاسكو Lascaux، بينما رسمت الحيوانات بطريقة واقعية ساعية إلى نقل أشكالها وحركاتها.

وعليه نرى إذن أن اللغة (المنطوقة والمكتوبة) والفن التصويري يتداخلان فيما يسميه أندري لوروا كورهان Andre Leroi-Gourhan «الزوج الفكري النطق–الخطي». وهناك، في نظره، قسم مهم من الفن التصويري مبدل من «الرسم الكتابي الرمزي»، وهو شكل تركيبي للوسم والذي في عرضه الصور (اللاتينية: بيكتس Pictus،رسم، عرض، ينقل «مفهومية» أو بالأحرى تمييزا ومنهجية غير مقبولة («idee»). وليس هذا الطراز من الكتابة بنقل بسيط للنطق، وربما يبنى أيضا بطريقة حرة مستقلة تماما عنه؛ ولكنه لا يشكل لغة على الأقل، وبالنسبة إلينا، ذوات تنتمي إلى منطقة ثقافية أين الكتابة لفظية وتنقل حرفيا اللغة اللفظية، إنه من الصعوبة بمكان تصور نوع من اللغة –كتابة– سبق لها أن وجدت، وتوجد حاليا لدى العديد من الشعوب، والتي تعمل بمعزل عن السلسلة المتكلم بها، ولتكن من ثم ليست خطية (كما هو إرسال الصوت)، بل فضائية، والتي تسجل كذلك منطوق تباينات حيث يكتسب كل وسم قيمة حسب مكانه في المجموع المرسوم. ويمكننا أيضا أن نلاحظ، منذ زمن مغارات لاسكو، العلاقات الطوبوغرافية الثابتة بين رسومات الحيوانات المعروضة: في الوسط ثور bison وحصان، وعلى الجانبين أيائل وعنز بري، وعلى المحيط الدائري أسود ووحيدات القرن. وفي نظر لوروا جورهان Leroi-gourhan «قد وجد وراء التجميع الرمزي للرسومات حتما سياق شفهي الذي به كان التجميع الرمزي منسقا والذي منه ينتج القيم فضائيا».

يبدو أن هذه النصوص الفضائية تؤسس الدعامة الخطية المادية، والنتيجة أنها باقية وقابلة للنقل من نظام أسطوري أو كوني خاص بمجتمع معلوم. ويمكننا القول إن هذه الأشكال الخطية، نصف الكتابية ونصف التمثيلية «فنية» سحرية أو دينية هي نصوص أسطورية.Mythogrammes.

ومن جهة أخرى فإن هذه الميزة التركيبية للعناصر الخطية تسمح بتكوين مجموعات كتابية خطية التي سبق لها أن علّمت تراكيب نحوية أو منطقية أكثر تعقيدا. وهي التي يسميها الصينيون المجاميع المنطقية المكونة من تجميع عدة حروف (عناصر خطية). وأيضا، لتعيين بأنه خلال سنة كانت هناك «وفرة من اللحم، يرسم الونتر كونت» Winter-Counts دائرة (مخبأ أو كومة) يوجد في وسطها رأس ثور، والتي يخرج منها وتد أو نوع من محالة (لقتر الحم أو تجفيفه).

ونلاحظ الأبعاد المتعددة لهذه الرسومات في عدة كتابات لا أبجدية، كما هو الحال في مصر وفي الصين وعند الأزتيك أو المايا Les Azteques ou les Mayas. إن عناصر هذه الكتابات، كما سنرى من بعد، يمكن أن تعد ككتابات تصويرية أو كتابات رمزية مختزلة، حيث يحصل بعضها على قيمة نطقية ثابتة. لنصل إذن إلى تلفظ هجائي للكتابة حيث يشترك كل عنصر مع صوت معين. فالحيزية الكتابية مختزلة أو مبدلة بخطية نطقية. هذا هو حال الكتابة الهيروغليفية المصرية حيث لكل خط تصويري بعد نطقي. وعلى النقيض من ذلك ابتعد رمز الفكرة الصيني عن الصورة التمثيلية من جهة)إذا تقبلنا في

الأساس أن الكتابة الصينية كانت تصويرية)، ومن جهة أخرى، لم تصل إلى أبجدية نطقية، حتى لو أن بعض العناصر لها قيمة نطقية ثابتة يمكن استعمالها كوحدات صوتية.

إن علم الكتابة، بتنظيمه المعطيات الأركولوجية المتعلقة بمختلف الكتابات، استطاع أن يميز بين ثلاثة أنواع: كتابة تصويرية، كتابة رمزية (أو هيروغليفية) وكتابة نطقية (أو هجائية). وهذه النمذجة التقليدية هي محل نزاع، ونبدلها بتراتبية لأنظمة الكتابة في خمسة أصناف:

الرموز الجملية: وهي تسجيلات تنقل رسائل كاملة لا تتميز ضمنها الكلمات المختلفة. وهذا المفهوم اقترحه العالم الأمريكي جلب Gelb، ويقترب من العبارة «كتابة تركيبية» التي اقترحها فيفري.Fevrier ويمكن أن تقسم إلى مجموعتين صغيرتين:

أ. الرموز التصويرية: وهي رسومات مركبة أو سلسلة رسومات تثبت محتوى من دون الرجوع إلى شكلها اللساني. وهذا النوع من الكتابة قد استعمل من طرف هنود أمريكا، الأسكيمو....الخ وقد استخدم لرسم حالات واقعية. وبناء على أن الرمز التصويري غير مستقر وحدسي؛ فإنه لم يستطع أن يتطور إلى نظام كتابي حقيقي.

ب. الرموز الاصطلاحية من مثل الرموز الطوطمية والطابوهات والرموز السحرية ورموز مختلف القبائل..الخ. هي رموز مستخدمة منعزلة ومن دون علاقة ثابتة مع الرموز الأخرى، لم تتمكن من تشكيل نظام كتابي.

الرموز الكتابية (من الكلمة الاغريقية :Logos) هي علامات لمختلف الكلمات. وهذا المفهوم المقترح من طرف بلومفيلد وجلب واسترين Istrine الخ، جاء ليعوض المفهوم الغامض للكتابة الرمزية. ويستعمل مارسيل كوهين Marcel Cohen «علامات-كلمات»، وفيفري «كتابة كلمات». ونسمي إذن الرموز المكتوبة كتابات منظمة كتلك التي عند الصينيين، والسومريين، وفي جزء منها عند المصريين، والمنحدرة من الكتابة التصويرية، حيث تشير العناصر إلى كلمات أو تحديدا إلى وحدات دلالية للخطاب على شكل كلمات أو تنظيم كلمات. ومقارنة بالكتابة التصويرية، فإن الكتابة النثرية لا تمثل المحتوى فقط بل النظام النحوي أيضا، وفي بعض الحالات الهيئة النطقية للمعبر عنه.

إن مفهوم رمز مكتوب له علاوة عن ذلك فائدة أن يشير إلى أن العنصر الأدنى المكتوب ليس فكرة أو مفهوما من دون الأساس الحسي (كما كان ممكنا أن يضعه المفهوم رمز فكري) ولكن اسما، وحدة لغة بما هي نظام حسي لعلامات مختلفة.

أن فئة الرموز المكتوبة مثل «الهيروغليفات الخطية الفكرية» الصينية مرتبطة مباشرة بدلالة الكلمة: إنها تستدعي شكل الظاهرة التي تشير إليها، والتي يمكن أن تقرأ غالبا بعدة أشكال. إن إمكانية القراءات المتعددة لعلامة واحدة توجد أيضا عند قدماء المصريين فـ «ذهب» كان يمكن أن تقرأ «s-m»، «s-b»، «j-w» ونسمي هذه الرموز المكتوبة رموزا مكتوبة دلالية.

والفئة الثانية للرموز المكتوبة مثل «الهيروغليفات اللفظية» الصينية مرتبطة مباشرة بتلفظ الكلمة. ومن ثم كانت مستعملة لتعيين المجانسات على الرغم من اختلاف المعنى، هذه الرموز الكتابية إذن متعددة المعاني، أي أن لها عدة معانٍ. وهكذا ففي الصينية القديمة الرمز المكتوب ma ما، يعني كلمة حصان، لكن أيضا الكلمة «أم» والكلمة «أقسم» واللتين تشبهان الكلمة الأولى لفظيا. إنها تحمل اسم الرموز الكتابية اللفظية.

تحدد رموز البادئة (الكليمة) مختلف أجزاء الكلمة والباديات (الكليمات). ولا يعرف تاريخ الكتابة عمليا بادئة خطية متطورة تماما، وانفكاك الكلمة إلى بادئات كان فعلا مهمة تحليلية جد صعبة ومعقدة.

إن الرموز المقطعية اللفظية هي الكتابات التي تعين مختلف المقاطع اللفظية من دون الأخذ بعين الاعتبار مدى تطابقها مع البادئات (المقاطع) أو عدم تطابقها،

ولذلك نميز ثلاثة أصناف جزئية هي:

أ. إما أن العلامات تبين المقاطع الفظية لمختلف التركيبات اللفظية (الكتابة الأشورية البابلية).

ب. وإما أن العلامات تعين مقاطع مفتوحة فقط (كالكتابة الكريتية الميسينية).

ج. وإما، في الأخير، أن العلامات الأساس تعين صوائت منعزلة لا غير بتنسيق مع صوامت ومع الصائت آ a

إن الرموز الصوتية هي عناصر صوتية دنيا للسلسة المتكلم بها أي الأصوات. توجد كتابات نطقية صوامتية حيث إن الحروف الأساس تعين الصوامت (كالأبجدية العربية والعبرية..الخ) وكتابات نطقية صائتية (كالأبجدية الإغريقية واللاتينية والسلافية) حيث تعين العلامات الصوامت مثلما تعين الصوائت.

ونلاحظ أن علم الكتابة هذا، والذي أعطينا الخطوط العريضة (التي عرضها إيسترين Istrine) والمتعلقة بأنواع الكتابة، تبقى وفية لتصور اللغة موضوع على نموذج اللغة المتكلم بها. وحتى لو أنه حدثت خطوة إلى الأمام بالنسبة إلى التمييز التقليدي رمز تصويري، رمز فكري ورمز لفظي، فإن التقدم المسجل إذن لا يقوم من وجهة نظر الكتابة إلا بنقل المعرفة التي لدينا حول اللغة التكلم بها. وعدت الكتابة ابرازا للمنطوق، كمثبتها المزدوج، وليس كمادة خاصة حيث التركيبة تدفع إلى الاعتقاد أن صنف التوظيف الكلامي مخالف للنطقي. وإذن فعلم الكتابة يبدو حبيس تصور الذي من جرائه تختلط لغة مع لغة متكلم بها، مبينة بحسب القواعد لنحو معين. لقد أبان ا. مييه Meillet أيضا، بعد سوسير، عام ١٩١٩ عن هذا الموقف: «لا يكفي أي رسم لتحويل اللغة خطيا أبسط مما تكون عليه بنية هذه اللغة. فيوجد الكثير من الكلمات حيث قيمتها لا تبين بوضوح بأي تمثيل خطي، حتى لو أعطينا للتمثيلات القيمة الأكثر رمزية. وخاصة البنية نفسها للغة فهي غير قابلة للإبانة عنها برسومات تمثل الموضوعات: لا توجد لغة إلا حيث يوجد مجموعة أساليب قواعدية.. وتقود بنية اللغة إذن حتما إلى تسجيل الأصوات؛ وأي تسجيل رمزي لن يرضي».

وفي وقتنا الحالي، وتحت تأثير الأبحاث الفلسفية ومعرفة المنطق واللاشعور، فإن بعض الباحثين يعدون مختلف أنواع الكتابة أنماطا لغوية ليست بحاجة حتما إلى تمثيل لفظي، مثلما كان يعتقد مييه Meillet، والتي تمثل تطبيقات دلالية خاصة مختفية أو متحولة داخل حياة الإنسان العصري. أن علم الكتابة، بوصفه مجالا جديدا، (وإلى وقتنا الحالي مجهولا في تخصصه) في الاستعمال اللساني؛ للكتابة بوصفها لغة، وليس بوصفها كلاما صوتيا أو سلسلة نحوية؛ الكتابة بوصفها استعمالا دلاليا خاصا والذي يجعلنا نلاحظ نواحي مجهولة من عالم اللغة الفسيح – علم الكتابة هذا يبقى إذن ليعمل.

الأصناف والعلاقات اللسانية:

عند عرضنا مادية اللغة الصوتية والخطية والإشارية، كانت لنا الفرصة لأن نبين وحتى أن نبرهن على أنها نظام مركب من عناصر وعلاقات، والذي بوساطته تنظم الذات المتكلمة الواقع، فضلا عن ذلك، نظام يحلله اللساني ويفهمه. إنه لمن الأهمية بمكان في هذا الفصل حول حسية اللغة، ولنحدد المعنى الذي نعطيه لمفهوم «الحسية»، أن نعين، ولو بإيجاز، كيف أن مختلف الأصناف والعلاقات اللسانية تنظم الواقع وفي الوقت ذاته تعطي الذات المتكلمة معرفة عن هذا الواقع المعرفي حيث الحقيقة مؤكدة بالاستعمال الاجتماعية.

سيظهر خلال هذا المؤلف الطرائق التي تبصرت بها مختلف الاتجاهات والمدارس اللسانية. ويلاحظ القارئ التعددية، وفي غالب الأحيان، تباعد الآراء والمفاهيم، الناتج عن مواقف المؤلفين النظرية لا عن خصوصيات اللغات المختلفة التي وضعت من أجلها النظريات. سنكتفي هاهنا بالإشارة، وبشكل موجز وعام، إلى بعض مظاهر البناء اللساني، ونتائجه بالنسبة إلى المتكلم وعلاقته بالواقع.

ينقسم علم اللسانيات إلى عدة فروع والتي تدرس بمظاهر عدة العناصر والأصناف اللسانية وعلاقاتها.

فالمعجمية تصف المعجم: حياة الألفاظ، معانيها وانتقائيتها، وترتيبها. ويعنى علم الدلالة –علم معنى الألفاظ والجمل– خصوصيات علاقات الدلالة ضمن عناصر ملفوظة. ويحمل النحو على أنه «دراسة الأشكال والأبنية». في حين أنه في وقتنا الحالي يؤدي تغيير علم اللسانيات وتجديده إلى محو حدود هذه القارات التي، تتداخل أكثر فأكثر، وتتمازج ويعاد تشكيلها في تصورات دائما جديدة وتطور كلي. ولو أخذنا على سبيل المثال مرحلة خاصة من تصورات، ليكن النحو، ينشأ عن ذلك أن هذا المثال لا يرتبط إلا بحقله المحدود، ولا يستطيع استنفاذ تعقيد مشكل الأصناف والعلاقات اللسانية.

لنتصور اللسان كنظام صوري، فاللسانيات تميز حاليا بين الأشكال اللسانية التي لها استقلالية (إنها تعني مفاهيم: شعب، قوت، أحمر..الخ) وأخرى هي نصف مستقلة أو على الأقل هي روابط (إنها تعني علاقات: «de» من في بِ عن، «a» لـِ إلى «ou » أو، زdontس الذي منه، التي منها، الذين، ما... الخ) وتسمى الأولى العلامات المعجمية، وتسمى الثانية العلامات النحوية.

هذه العلامات تترتب في قطع استطرادية لتعقد متعدد: الجملة،Proposition، الكلمة، الشكل (حسب ب.جيرو، في النحو، ١٩٦٧)

للكلمات زوائد (لواحق، أدوات تصدير، زوائد في وسط الكلمة) تسهم في تشكيل كلمات أخرى (أو دلالات ألفاظ) باقترابها من الجذر. هكذا غيّر Chang-er، تغيّر Change-ment، إعادة تغيير re-change الخ. وصنف من الزوائد، الحركات الإعرابية، «تحدد القانون النحوي للكلمة داخل الجمل (صنف، كيفية، ربط)»

تشكل الكلمات جملا اعتمادا على قوانين صارمة. ويمكن تحديد العلاقة بين الكلمات بنظمها، والنظم هو هو الفاصل في اللغات العازلة من مثل الفرنسية؛ في حين لا توجد أهمية نسبية في لغة معربة كاللاتينية. فحركة المد والروابط وخاصة التوابع، والموافقات والمباني، تحدد العلائق بين مختلف أجزاء الجملة.

إن النحو القديم، في معالجته الأصناف النحوية، يتبين: أجزاء الخطاب، الأنماط والعلاقات التركيبية.

وتتنوع أجزاء الخطاب في مختلف الألسن. فاللغة الفرنسية تسعة أجزاء: الموصوف، الصفة، الضمير، الأداة، الفعل، الحال، حروف الجر، الرابط، التعجب.

وتتعلق الأنماط بالأسماء والأفعال، وتعين وظيفتها وهي: العدد، الجنس، الفرد، الزمن، الحيز، صيغة الفعل.

إن العلائق التركيبية هي العلائق التي تدخل فيها الكلمات مميزة (كأجزاء الخطاب) ومصنفة (بمساعدة الأصناف) في الجملة. ويعد العلم الحالي أشكال النوع والكيفية هي أيضا أشكال تركيبية: وهي لا تعني أية دلالة خارج السياق، وليس لها شكل إلا داخل هذه العلائق التركيبية. وبمعنى آخر، فإنّ اللفظ لا يكون اسما أو فعلا إلا بحسب الدور التركيبي المحدد في الجملة، وليس لأنّه حامل في ذاته معنى خاص الذي يحتم عليه أن يكون «اسما» أو «فعلا». إن هذا الموقف النظري صالح بالنسبة إلى لغات الهندو–أوروبية، وتنطبق أيضا على لغات من مثل اللغة الصينية التي لا تملك قواعد صرف للكلام، حيث يمكن للكلمة أن تتحول بين أجزاء الخطاب (اسم، فعل، الخ) تبعا لوظيفتها التركيبية. وعليه فإن اللسانيات الحديثة تسعى إلى التقليص الصرف (دراسة الأشكال: الإعراب، الصرف، الجنس، العدد)، في حين أن المعجمية، وعلم الدلالة، والنحو يعنون بدراسة الأبنية، وتشكيل كل ملفوظ لساني دال كمشكّل تركيبي. هذه النظرية التي طورها تشومسكي في «النحو التوليدي»، والتي سنعود إليها.

الفاعل والمسند إليه: مبدأ–جذري (الفاعل) حيث نعطيه خاصية ما، حالة أو حركة (المسند إليه)؛

تشكل محددات الاسم أو الصفة، مع الفاعل، المكون الأسمي في الجهاز المفاهيمي عند تشومسكي.

وتشكل ملحقات الأفعال التي تنضاف إليه لتحدد المفعول أو ظروف الحدث، مع المسند إليه المكون الفعلي.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل أن هذه الأنماط تحدد العناصر والعلاقات اللسانية خصوصا، أو أنها على العكس من ذلك نقل لأفكار منطقية؟ لقد كان النحو، فعلا، حبيس الآراء المنطقية (الأرسطية) والتي فرضت ربط النحو بالمنطق بداية من العصور القديمة إلى اسمية العصور الوسطى، وخاصة في القرن الثامن عشر. وبات من الواضح اليوم أن الأصناف اللسانية، بعيدة أن تكون «طبيعية» لا تتوافق إلا في بعض اللغات جد محدودة، وكذا بعض الملفوظات، ولا تستطيع أن تغطي تعدد الأنماط والعلاقات اللسانية وخصوصيتها. ومن بين المصنفات البارزة التي استطاعت أن تحرر النحو من تأثير المنطق، كتاب درس نحو اللغة الفرنسية لـ ج. دمورات، وأ. بيشون .Damourette et E.Pichon (1911-1952): إنهما قد جددا دقة الأنماط الفكرية التي يسجلها الخطاب من دون إشكال التنظيم المنطقي في حين أن المشروع المنطقي يثبت، ويعطي المجال لنوعين من النظريات.

فمن جهة فإن علوم النحو التحليلي Les grammaires psycho - logiques كالتي عند م.ج جيوم M.G.Guillaume. حيث إن المؤلف يميز «اللغة» التي يسميها «ملازمة»، منطقة غامضة، ما قبل الاستلالية، أي ينتظم الكلام، من عملية تحقيق الفكرة، وفي الأخير من «الخطاب» أو «تجاوز» الذي أصبح بناء للعلامات اللسانية. وبالأحرى درس جيوم ما يسبق الخطاب، ويدعو هذا العلم «التحليل الميكانيكي» أو «التحليل التنظيمي». إن «الخطاب» بالنسبة إليه أو «التجاوز»، بهذه الأبنية تتشكل الأشكال النحوية، والتي تأمر النشاط الفكري (الملازمة).

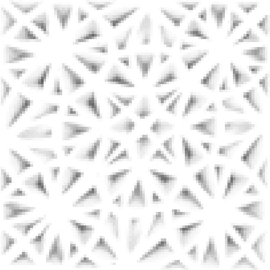ومن جهة أخرى، فإن نظريات منطقية حديثة: المنطق الرياضي، المنطق التركيبي، المنطق الموجه.. الخ، هي التي مكّنت اللسانيين من أساليب مرنة من أجل استنباط دور العلاقات في النظام اللغوي، من دون مغادرة الميدان اللساني أو مناشدة التنظير لفكرة ما قبل لسانية.■